

معالم الخطاب الأدبي في تفسير الإمام محمد متولي الشعراوي

حمو عبد الكريم

باحث بالمركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران.

بات تعلم اللغة العربية والتبحر في علومها ومباحثها شرطاً من شروط التفسير القرآني، ومن بين العلوم التي يحتاجها المفسر علاوة على اللغة والنحو والتصريف والاشتقاق والمعاني والبيان والبدیع والقراءات،⁽¹⁾ علم أسباب نزول الآيات ومعرفة المكي والمدني، ومعرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل... وقد اشترط الواحدي (ت: 468هـ) تعلم النحو والأدب للذين يمارسون مهنة التفسير، فقال: «إنَّ طريق معرفة تفسير كلام الله تعالى، تعلم النَّحو والأدب، فإنَّهما عمدتاه وإحكام أصولهما، وتتبع مناهج لغات العرب فيما تحويه من الاستعارات الباهرة والأمثال النادرة، والتشبيهات البديعة، والملاحن الغريبة، والدلالة باللفظ اليسير على المعنى الكثير، مما لا يوجد مثله في سائر اللغات».⁽²⁾

وبالتالي فعلم التفسير هو من أهم العلوم التي انصرفت إلى النظر في ألفاظ القرآن الكريم، إلى جانب عنايته بالآيات وما يتعلق بها من معان وتأويلات، وأول من قام بتفسير مفردات القرآن الغامضة تفسيراً لغوياً الصحابي عبد الله بن عباس (68هـ)، وكان يعتمد على الشعر القديم في تفسير عريب القرآن، وفي الإتيان روى أبو عبيدة أنَّ ابن عباس رضي الله عنه قال: «إذا أَشْكَلَ عليكم الشَّيء في القرآن، فارْجِعُوا فيه إلى الشعر فإنَّه ديوان العرب»،⁽³⁾ وكان يُسأل عن القرآن فيُنشِد الشعر.⁽⁴⁾ إذن فالمفسر في حاجة ماسة إلى معرفة دلالة اللفظ والمعنى التي تحدد مقاصد النص القرآني في استنباط الأحكام: فقهاءً، وتشريعاً، وتربوياً.

والمأمل في - تفسير الشعراوي (ت: 1998م)⁽⁵⁾ يجده ملتزماً بمواصفات وأدوات التفسير المعروفة والتي منها: أن يكون مالكاً لخاصية علوم اللغة العربية، وعالماً بأسباب نزول الآيات ومواطن نزولها والناسخ والمنسوخ وعلم القراءات؛ وله دراية بقصص الأنبياء وقارئاً لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسير الصحب الكرام، ومطلعاً على جُل التفاسير السابقة، فهذه الشروط كلها وجدناها في شخص الشعراوي بالإضافة لورعه وزهده وحبّه للعرب والمسلمين عامة.

وما لوحظ عليه أيضاً هو التزامه بالتدقيق اللغوي للآيات القرآنية، واهتمامه بالمفردة القرآنية ولهذا يقول: «فإننا لا بد أن نتناول دقة اللفظ، أو دقة التعبير في القرآن الكريم، وكلام الله يجب أن يكون في غاية الدقة، بحيث يعبر عن الشَّيء تعبيراً كاملاً، فلا تجد حرفاً زائداً بلا معنى».⁽⁶⁾

فتفسير الشعراوي هو من أحسن التفاسير لما فيه من قيمة إيمانية وقيمة دعوية وقيمة اصلاحية؛ وقد صنفه محمد أمين إبراهيم التندي ضمن قائمة مفسري المدرسة الاجتماعية،⁽⁷⁾ وذكر أنَّ الشعراوي كثيراً ما يتعرض للنظريات العلمية ليربطها بالقرآن الكريم، مبيناً أنَّه لا تناقض مطلقاً بين القرآن الكريم والحقائق العلمية، لكنه يُحذِر من أن يُخضع القرآن الكريم للتفسيرات العلمية دائماً، خاصة النظريات العلمية التي قد تتغير من زمان إلى زمان وبالترقى العلمي.

وقد أدرك الشعراوي بملكته العربية وفصاحته البلاغية، قيمة المفردة وأنها «أصل في التعبير والوضوح في المعنى والصدق في الدلالة، لأنَّ الكلمة إذا تمكنت في موضعها دلت على المعنى كله فإذا حُشِرَتْ حُشراً أو فُسِّرَتْ قَسْراً دَلَّتْ على بعض المعنى، أو أُلْجأت إلى غيره».⁽⁸⁾ ومن خلال هذا الطرح نتساءل: كيف كان خطاب الشعراوي أثناء التفسير؟ وماهي الأساليب الدعوية التي مارسها في تبليغ كلام الله تعالى؟

فالشعراوي طيلة حياته وهو يدعو الناس إلى محبة القرآن الكريم والعمل به، وظل يقرأ ويحقق ويفكر ويستوعب قبل أن يخرج إلى الناس وينقل لهم عصارة فكره؛ خمسين عاما من الجهد والذاكرة المستمرة، حتى أوجد لنفسه مكاناً ومكانة في وسط المسلمين في مصر وخارجها، وتُصبح له هذه الجاذبية المثيرة التي تجعل مستمعيه يطربون ويهتزون نشوة وانتعاشاً، وهو بعمق تحليله وبرجاجة فكره ونبرة صوته، يملأ عقول وقلوب وأفئدة محبيه، حتى إنك إذا سمعت منهم صيحات التكبير لله أكبر الله أكبر.. تدرك أنَّ الفهم قد وصل، وأنَّ الخطاب سلك مسلكه وأدى مؤداه. ومن معالم الخطاب الأدبي الذي اعتمده الشعراوي ما نجد:

1. مزج الدعوة الإسلامية بالأدب:

جعل الشعراوي من الدعوة أدباً وجعل الأدب وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية؛ أي جعل من الأديب داعية ومن الداعية أديباً، فخرج من الدعوة التقليدية الوعظية التي تعتمد على الأداء الصوتي والقوالب والصيغ المحفوظة إلى حد الاندماج بينه وبين مستمعيه، وذلك عن طريق التواصل الشفوي والوجداني، لأنه امتلك ناصية الكلمة العربية وامتلك القدرة على الارتقاء والتحليق بمعطيات الروح المتحررة، وامتلاك ذلك كله هو معيار التمايز بين دعوات الفقهاء ودعوات الأدباء؛ بل هو معيار التوفيق ونجاح الداعية، فالأولون يخاطبون في المتلقي عقله لا غير، والعقل قد يصحوا وقد ينام؛ أما الآخرون فهم يخاطبون في المتلقي عقله ووجدانه، وبين حالتي الخطاب لا بد أن يضيفوا به وأن يستولوا عليه، وهذا هو الداعية الموفق وهذه هي الدعوة الناجحة.

وقد سُئل الشعراوي يوماً: هل تحتاج الدعوة الإسلامية إلى الأديب الداعية أم الداعية الأديب؟ فأجاب: الدعوة الإسلامية في حاجة إلى الداعية الأديب لأنه يميل الناس إلى الدعوة، ويستحسن عرض المطلوب الديني بالأدب المستميل المطرب، المعجب، المقنع والممتع.⁽⁹⁾ ومن النماذج التفسيرية الأدبية التي ارتفع بها في الأسلوب، من مرتبة الإقناع إلى مرتبة الإبداع تفسير قوله تعالى: {وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ}،⁽¹⁰⁾ فكان الإنسان قد ملك المال وبعد ذلك "أتاه". وعندما تقول: "أتيت" فهي تعني أعطيت، وهي تختلف عن "أتيت" التي تعني "جئت". ويمكن أن نفهمه على أكثر من معنى: يمكننا أن نفهمها على أنه يعطي المال وهو يحب المال، ويحتمل أن نفهمها على أنه يؤتي المال لأنه يحب أن يعطي مما يحبه من المال. ويمكن أن تُصعد المعنى فيصير "وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ" أي يُحب الإعطاء وترتاح نفسه للإعطاء، ومن الممكن تصعيدها تصعيداً آخر يشمل كل ما سبق فيصبح المعنى: وأتى المال على حب الله الذي شرع له ذلك، وكل هذه المعاني محتملة. إذن الآية تعطينا إما منزلة إخراجها من الملك؛ وإما منزلة إخراجها من القلب الذي يحبه.⁽¹¹⁾

ففي النفس الإنسانية ملكات متعددة، وهذه الملكات المتعددة متشابكة متشابكة دقيقاً فتستطيع حين تخاطب ملكة سمعية أن تحرك مواجيد وجدانية، فإن لم يكن العالم بالملكات عليماً بما لما أمكن أن يجيء المنطق موافقاً لملكة سمعية، وموافقاً لملكات وجدانية قد تتأني بها طبيعة تداعي المعاني، ومعنى "تداعي المعاني" أن الإنسان يستقبل معنى من المعاني فيشير ذلك المعنى إلى معان خبيئة يستدعيها لتحضر في الذهن.⁽¹²⁾ فعندما يذكر الإنسان بعض الكلمات تداعي المعاني التي ترتبط بها أو تستثيرها هذه الكلمة أو تلك في نفسه، حيث يستدعي معنى آخر لتتصل المعاني ببعضها البعض كسلسلة مترابطة فيما بينها، فتكون صورة ذهنية واضحة المعالم. وهذا التحليل أنبأنا بأن الشعراوي يمتلك من مفتاح اللغة والبيان ما يأهله لتبليغ مرادات الله تعالى .

2. حسن العرض والتقديم:

ما ميز خطاب الشعراوي هو قدرته الفائقة في إقناع القارئ والسامع، مثال ذلك قوله تعالى: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}،⁽¹³⁾ فنحن إذا سمعنا بكلمة "ثم" نعلم أنها من حروف العطف، وإتياء موسى الكتاب كان قبل أن يأتي قوله: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} فالتواتر جاءت ثم الإنجيل، ثم جاء القرآن ككتاب خاتم. ويتساءل الشيخ: فكيف جاءت العبارة هنا بـ "ثم"؟ مع أن إتيان موسى الكتاب جاء قبل مجيء قوله الحق: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}،⁽¹⁴⁾ فوظيفة "ثم" لترتيب أفعال وأحداث، وهنا جاءت "ثم" لترتيب أخبار؛ إذن، فأنت تقوم بترتيب أخبار. وتتصاعد فيها، وترقى، ولذلك قال الشاعر العربي:

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ⁽¹⁵⁾

فالسيادة جاءت أولاً للجد، ثم جاءت للأب، ثم انتقلت للابن. و"ثم" في هذه الحالة ليست لترتيب الأحداث وإنما جاءت للترتيب الإخباري.⁽¹⁶⁾ وبالتالي فعرض الشعراوي كان مبسطاً واضحاً معتمداً على العرض الأدبي السهل الخال من التعقيد، والمشيّد بالشاهد الشعري الذي جاء ليؤكد مضمون ما يريد دون تكلف.

فهو لا يترك القضية حتى يطرحها من كل جانب ويحيط بأطرافها ويلم ما يثور حولها من فرعيات ويناقش كل ذلك في موضوعية مقنعة فتتسلسل له القضية ويصل القارئ إلى منتهى الاقتناع بها. فهو يتحرك بيديه ويميل بمرفقيه ويعصب ملامحه ويضحك أسنانه، ويشير بكفه ويضرب على فخذه؛ كما أن أدائه الانفعالي والصوتي واضح الدلالة، فكل انفعالاته تتركز على نغمات صوته الذي يرتفع وينخفض ويخشن ويرق ويغلظ وينعم...

2- الاستشهاد بالشعر:

يعد الشاهد الشعري من أبرز الشواهد التي استعان بها المفسرون في تبليغ مقاصد الشارح الحكيم، «فالشعر ديوان العرب، وبه حُفظت الانساب، وعُرفت المآثر، ومنه تُعلّمت اللغة، وهو حُجة فيما أشكّل من غريب كتاب الله جل ثناؤه وغريب حديث رسول الله وحديث صحابته والتابعين»⁽¹⁷⁾ وقد ألح الطاهر ابن عاشور على اعتماد الشعر العربي في إيضاح المعاني واقتناع السامع، فقال: «إنه لم يكن غني للمفسر في بعض المواضع من الاستشهاد على المراد في الآية، ببيت من الشعر أو بشيء من كلام العرب، لتكميل ما عنده من الذوق عند خفاء المعنى، ولإقناع السامع والمتعلم اللذين لم يكمل لهما الذوق في المشكلات»⁽¹⁸⁾.

ولقد كان الشعراوي يحفظ مائة ألف بيت شعري فضلاً عن تجويده للقرآن، وبراعته في تناول سير الأنبياء وقصص الصالحين والعلماء.⁽¹⁹⁾ وفي تفسيره⁽²⁰⁾ قوله تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ}،⁽²¹⁾ جاء بقصيدة شعرية للشاعر الفُند الزماني، يقول الشاعر:

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي دُفْلٍ وَقُلْنَا الْقَوْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الْأَيَّامُ أَنْ يَرْجِعَنَّ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فَلَمَّا صَرَحَ الشَّرُّ فَأَمْسَى وَهُوَ غُرَيَّانُ
مَشْيَيْنَا مَشْيَةَ اللَّيْلِ غَدَاً وَاللَّيْلُ غَضَبَانُ
بَضْرَبٍ فِيهِ تَوْهِينٌ وَتَخَضُّعٌ وَإِقْرَانُ
وَطَعْنٍ كَفَمِ الرِّقِّ غَدَاً وَالرِّقِّ مَلَأْنُ
وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حِينَ لَا يُنْجِيكَ إِحْسَانُ
وَبَعْضُ الْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ لِلذَّلَّةِ إِذْغَانُ⁽²²⁾

فهذه الآية من سورة الحجر قد دعت إلى خفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب، وقد استدلل جل المفسرين بأبيات شعرية تقوي المعنى وتثبتته، ومنهم صاحب الكشف الذي قال:

وأنت الشهير بخفض الجناح فلا تك في رفعة أجداً⁽²³⁾

وقد استدلل الشوكاني في الفتح القدير⁽²⁴⁾ بقول الكميّ لتأكيد هذا المقال، فقال الشاعر:

خَفَضْتُ لَهُمْ مَنِي جَنَاحِي مُودَةً إِلَى كَنَفِ عِطْفَاهُ أَهْلٌ وَمَرْحَبٌ⁽²⁵⁾

3- براعة الاستطراد:

والاستطراد سمة من سمات المنهج الأدبي، والشعراوي في استطراداته يخرج عن المضمون؛ بل يوثق كل ما صلة بالموضوع، ويلملم المتفرقات التي تجعل من الجزئيات كلا متكاملًا فنفهم الصورة كاملة من خلال جزئياتها ولم يأتي الاستطراد عبثاً؛ وإنما قصد إليه قصداً يقول الإمام في تفسير قوله تعالى: {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ}،⁽²⁶⁾ وكلمة "يَقْدُم" هي من مادة "القَاف" و"الدَّال" و"الميم". وعند استخدام هذه المادة في التعبير قولاً أو كتابة، فهي تدل على الإقبال بالمواجهة؛ فيقال: "قَدِمَ فُلَانٌ" دليل إقباله عليك مواجهة. وإذا قيل: "أَقْبَلَ فُلَانٌ" فهذا يعني الإقبال بشيءٍ من العزم. و"قَدِمَ الْقَوْمُ يَقْدُمُهُمْ"؛ أي: أنهم يتقدمون في اتجاه واحد، ومن يقودهم يتقدمهم. ويأتي القرآن بآيات وبيِّناتها، مثل قول الحق سبحانه: {فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا}،⁽²⁷⁾ ويقول الحق سبحانه: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا}،⁽²⁸⁾ ولم يقل الحق سبحانه: "وإن منهم إلا واردها". وإنما قال: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا}. وبذلك عمّم الخطاب للكل، أو أنه يستحضر الكفار ويترك المؤمنين بمعزل. وهنا يقول الحق عن قوم فرعون: {فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيُسَّ الوِرْدَ الْمَوْرُودَ}؛⁽²⁹⁾ أي إنهم يشعرون بالبؤس لحظة أن يروا ماء جهنم ويشربون منه. إذن: فكلمة "الْوَرْد" تطلق على عملية الشرب من الماء، وقد تطلق على ذات الورداءين مثل قوله: {وَنَسُوفُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا}،⁽³⁰⁾ وقد قال الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى في معلقته:

فَلَمَّا وَرَدْنَ الْمَاءَ زُرْقًا جَمَاهُ وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمَسْحَمَ⁽³¹⁾

والشاعر هنا يصف الرُّجْب ساعة يرى المياه الزرقاء الخالية من أي شيء يعكرها أو يُكدرها، فوضع القوم عصا الترحال.⁽³²⁾

ولأنّ حاسة الشعراوية اللغوية والأدبية تدفعه إلى مراجعة الكلمة القرآنية في مختلف السّور متى وردت لأول مرة في النص المشروح، وبذلك يكون الموضوع متماسكا أمام القارئ لا يكاد يفلت منه شيء، فهو يكاد يأتي بلفظ قرآني في أية كريمة إلا ذكر مثيله في الآيات

الأخرى رابطاً بين الآيات بسلسلة وثيقة من المعاني فيقدم لسماعه تفسيراً رائعاً ثمين الدرر... إنه بذل فوق المستطاع حتى جذب إلى روضة القرآن نفوساً لم تكن تفكر في أن تجلس مجلس المستفيد من كتاب الله، فإذا انجذبت إلى تفسير الشعراوي هذا الانجذاب فمعنى ذلك أن الرجل قد امتلك من أزمة الإمتاع وأعنة التوجيه ما جعل تأثيره ذا سطوع نفاذ.

4- التمثيل الكاشف:

استخدم الشعراوي التمثيل من الواقع المعاش، وبه أوصل مدول الآيات ومعانيها، والتمثيل والتصوير سمة من سمات الأداء الخطاب القرآني، ومن هنا كانت خاصية خطابه الوضوح لأنه غاية المتكلم من الكلام، وبه يدرك السياق، لأن الذي يلغز في قوله لا يفهمه أحد؛ بل يحاول أن يستطيل بما يلغز مدعياً أنه بذلك يصعد مراقي الفكر، وما علم أنه أوصد الأبواب بينه وبين قارئيه فما أفاد أو استفاد.

يستعرض الشعراوي الآية التالية ويقدم الصورة إجمالاً للمقارنة والموازنة بين أهل النار وأهل الجنة، يقول الله في أهل النار: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ} (33) فالآية تعرض لنا سورة المكذبين بالله وجزائهم. يقول الشعراوي: «فهم لن يدخلوا الجنة وعلى ذلك فقد سلب منهم نفعاً، ولا يتوقف الأمر على ذلك، ولكنهم يدخلون النار، إذن فهنا أمران: سلب النافع وهو دخولهم الجنة، إنه سبحانه حرّمهم ومنعهم ذلك النعيم، وذلك جزاء إصرارهم. وبعد ذلك كان إدخالهم النار، وفي قول الحق: {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} (34) فكأن الإصرار كان سبباً في ألا يدخلوا الجنة، والظلم كان سبباً في أن يكون من فوقهم غواش، لهم من جهنم مهاد، وهم في النار يحيطهم سرداقها» (35) فهذه الصورة العجيبة توحى بكم هائل من الدلالات والصور والمشاهدات، وكأنّ القاري والسماع تتكشف أمامه صورة للمكذب العنيد ومصره المنتظر. وهكذا الشعراوي يتبع المفردة تلوى الأخرى كاشفاً عن مدلولها ومستنتظاً دورها الإيجائي التبليغي.

5- مزج العلم بالأدب:

فالشعراوي جعل من الأدب علماً ومن العلم أدباً، فالعلم يخاطب العقل والأدب يخاطب العاطفة أو يخاطبهما معاً؛ فالعالم يلتزم بالتسلسل المنطقي والأدب يلتزم بالترتيب الوجداني دون مراعاة للنسق المنطقي، والعالم يلتزم بالموضوعية والأدب ينحو إلى التلقائية، والسياق في العلم يرتبط بنتائج معلّمة؛ أما السياق في الأدب فإنه يرتبط بالأدب الذي يترجم عن الواقع والمجتمع من خلال نفسه ومشاعره. مثال عن ذلك قوله تعالى في سورة الكهف: {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} (36) فلقد تنوعت أقوال المفسرين في أسباب التقلب، وعدد مراته، وكيفيته، ومصدره، وتعليل ذلك هو أن تقلبهم كان لجهة اليمين واليسار، والذي يقلبهم هو الله سبحانه، وأنّ التقلب كان مرتين في كل سنة أو في مدة رقتهم كلها، ومن المفسرين الطبري الذي يرى أن تقلب هؤلاء الفتية في رقتهم مرة للجنب الأيمن ومرة للجنب الأيسر. (37)

وفي تفسير الشعراوي نجده يقول: "لو أتيح لك النظر إليهم لحُيِّل إليك أنهم أبقاظ غير نائمين، ذلك لأنّ رهم حفظهم على حال اليقظة وعلى هيئتها، ثم أظهر فيهم آية أخرى من الإعجاز بأن يُقلَّبهم في نومهم مرة ناحية اليمين، وأخرى ناحية الشمال، لتظل أجسامهم على حالها، ولا تأكلها الأرض، ومعلوم أنّ الإنسان إذا قُدِّر له أن ينام فترة طويلة على سرير المرض يُصاب بمرض آخر يُسمونه قرحة الفراش.. وقد جعل لهم هذا التقلب ذات اليمين وذات الشمال على هيئة الإيقاظ". (38) وفي العصر الحديث والاكتشافات المعاصرة رأى الباحثين أنّه لولا هذا التقلب لما بقي هذا الجسم يتلقى إمداداته من الدم بأوعية واسعة، بل لمات من مرض خطير اسمه قرحة السرير. وفي بعض المستشفيات الغربية يضعون للمريض أسيرة تهتز بشكل دائم بفعل محرك كهربائي من أجل أن تقي المريض قرحة السرير. (39)

6- الأسلوب المطبوع:

الأسلوب المطبوع هو الذي يترك في النفس أثراً، لأنّ الجماهير تملك أدوات الحس التي تميز به الصدق والكذب، وتملك القدرة على التفرقة بين الكلمة الصادقة والمطبوعة والكلمة الزائفة المصنوعة. مثال عن ذلك قوله تعالى في سورة يوسف: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} (40) والخطاب موجّه إلى محمد صلى الله عليه وسلم؛ أي: أنك يا محمد لم تكن معهم حين قالوا: {إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا} (41) فالحق أحبرك بأنباء لم تكن حاضراً لأحداثها، والغيب هو ما غاب

عنك، ولم يَغِبْ عن غيرك، وهو غيب نسبي؛ وهناك الغيب المطلق، وهو الذي يغيب عنك وعن أمثالك من البشر. والغيب كما نعلم له ثلاثة حواجز: الأول: هو حاجز الزمن الماضي الذي لم تشهده؛ أو حاجز الزمن المستقبل الذي لم يَأْتِ بَعْدُ. والثاني: هو حاجز المكان. والثالث: هو حاجز الحاضر، بمعنى أن هناك أشياء تحدث في مكان أنت لا توجد فيه، فلا تعرف من أحداثه شيئاً.⁽⁴²⁾

فجل القصص القرآني يترك في النفس انطباعاً حقيقياً، لأنَّ مشاهد وحركات كل قصة حقيقة، تنغرس في نفس المؤمن ويعتبر بها ويخشع لها، وقد برع الشعراوي في هذا الجانب، إذ تعددت التأويلات والتفسيرات في الآية الواحدة، وهذا بسبب الأسلوب الانطباعي الذي ترك أثره في نفس المفسر وفي خلجاته.

7-أسلوبه بين الفصحى والعامية:

واضح من تفسير الشعراوي أنَّه مازح في خطابه بين اللغة الفصحى اللهجة المصرية، بغية منهم إيصال المعنى لعموم الناس والمنصتين، وقد عبر بهذا الرأي فقال "وَجَدْتُ نفسي أُحِبُّ أن أقول ما يُمتنع النَّاسُ فكُتبت الشَّعر العامي والزَّجل، ثُمَّ بدأت انتقلُ إلى الشَّعر الفصيح، فمن يكتب بالعامية معذور، لأنَّه لم يتعلم، ولذلك يقول الزَّجل والشَّعر العامي، لكني أكتب بها، ولا بد أن أكتب بالفصحى".⁽⁴³⁾

فالملاحظ أنه غلبت عليه مصريته التي تميل إلى المرح والدعابة، ويندر أنَّ خلا حديث للشيخ من دعابة أو طرفة أو ملححة أو نادرة يشيع جوا من الألفة والمودة بينه وبين جمهوره، وتخفف من جفاف العلم ودسامة الحديث، وتربط بينه وبين الناس برباط إنسان حميم. وهو بهذا الطرح يصعد من أسلوب الاقتراب اللغوي إلى المعنى الذي تضمه العبارة؛ ثم يبدأ صعوده من المعاني حتى ينتهي إلى ذروة جديدة، ومن يسمع لدرسه يحس بخشوع وبحرارة إيمانية، بالإضافة إلى الاصطفاءات الروحية التي يكشفها في أحاديثه...

الخاتمة:

جاءنا الشعراوي بأسلوب قديم ومعاصر معاً، فهو يتكلم في رواق مثلما كان العلماء القدامى يفعلون، وهو يتحدث إلى جمهوره ليحس بالصلة الحية بينه وبينهم، وبالطبع فتفسيره من طينة التفسير التي يسمع لها أكثر من أن تُقرأ، وهذا الأسلوب يغني عن كثير من الجهد بالنسبة للمتعلم، ولكنه يضع على كاهل المعلم صعوبته إلا أنَّ الشعراوي يقوم به ببسر وبلا تكلف، وقد أحاط بمعالم الخطاب الأدبي في تفسيره وأبدع فيها.

الهوامش:

1. ينظر: جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات الإسلامية، السعودية، (د،ت)، 2/1209.
2. الواحدي، التفسير البسيط، تحقيق: محمد بن صالح بن عبد الله الفوزان، الرياض، السعودية، (د،ت)، 1/22.
3. الإتيان، جلال الدين السيوطي، 112/1.
4. ينظر: العباس محمد بن يزيد المبرد، الفاضل في اللغة والأدب، تحقيق: عبد العزيز الميمني، طبعة الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1975، ص10.
5. محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، تحقيق ومراجعة: أحمد عمر هاشم، دار أخبار اليوم، 1991، مصر.
6. محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن، دار أخبار اليوم، ط1، 1993، 46/1.
7. نشأت هذه المدرسة من ناحيتها الإصلاحية الاجتماعية في مطلع القرن العشرين مع الامام محمد عبده وتلاه تلاميذه محمد رشيد رضا، ولقد حدد الذهبي منهجها في التفسير، فقال: "فالذي نحمده لهذه المدرسة: أنَّها نظرت للقرآن نظرة بعيدة عن التأثير بمذهب من المذاهب، فلم يكن منها ما كان من كثير من المفسرين من التأثير بالمذهب إلى الدرجة التي تجعل القرآن تابعاً لمذهبه، فيؤول القرآن بما يتفق معه، وإن كان تأويلاً متكلفاً وبعيداً... كذلك لم تغتر هذه المدرسة بما اغتر به كثير من المفسرين من الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي كان لها أثر سيء في تفسير القرآن الكريم" ينظر: التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط7، 401/2.
8. أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، مطبعة النهضة، مصر، 1967، ص4.
9. الشعراوي، مجلة الأدب الإسلامي، العدد1، ربيع الأول 1417هـ، مصر، ص62.
10. سورة البقرة، الآية: 177.
11. الشعراوي، تفسير الشعراوي، 1610/1.
12. المرجع السابق، 1609/1.
13. سورة الأنعام، الآية: 154.
14. سورة الأنعام، الآية: 151.
15. البيت للشاعر أبي نواس الحسن بن هانئ، وهو من سبعة أبيات مدح بها العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر، وهو عم هارون الرشيد، ينظر: ديوان أبي نواس برواية الصولي، تحقيق، بحجة الحديثي، دار الرسالة، بغداد، 1980، ص380.
16. ينظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، 7/4004.

17. ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، تعليق، أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص 212.
18. الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، 1984، ط1، 21.
19. أحمد فرغلي، روحانيات وذكريات، مصر، دت، ص 06
20. الشعراوي، تفسير الشعراوي، 7770/12.
21. سورة الحجر، الآية: 88.
22. ينظر: عبد القادر بن عمر البغدادي، خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط4، 1997، 451/1.
23. الرمخشي، الكشف، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، 1998، ط1، 131/3.
24. الشوكاني، فتح القدير، دار المعرفة، 1/2004، 769.
25. الكميّ بن زيد الأسدي، ديوان الكميّ، جمع وتحقيق: محمد نبيل طريفي، دار النشر: دار صادر، ط1، 2000، ص85.
26. سورة هود، الآية: 98.
27. سورة مريم، الآية: 68.
28. سورة مريم، الآية: 71.
29. سورة هود، الآية: 98.
30. سورة مريم، الآية: 86.
31. زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1980، ص13.
32. الشعراوي، تفسير الشعراوي، 11/6659.
33. سورة الأعراف، الآية: 40.
34. سورة الأعراف، الآية: 41.
35. الشعراوي، تفسير الشعراوي، 7/4138-4139.
36. سورة الكهف، الآية: 18.
37. الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار ابن تيمية، دت، 194/8.
38. الشعراوي، تفسير الشعراوي، 14/8860.
39. محمد راتب النابلسي، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، 2003-11-22 <http://nabulsi.com>
40. سورة يوسف، الآية: 102.
41. سورة يوسف، الآية: 08.
42. تفسير الشعراوي، 7097.
43. محمد متولي الشعراوي، مجلة الأدب الإسلامي، العدد 11، 1999مصر، ص 59.